ثقافية اجتماعية شهرية
جهينة JOUHINA
عند جهينة الخبر اليقين
مجلة
Jouhina.com

# عالية ممدوح: لست منفية

جهينة- أحمد علي هلال:

يحدث أن يقارب المنفي اغترابه في أمكنة وأزمنة مغايرة، ليمتحن شرط وجوده وسيرورة كينونته، وفي المقاربة ثمة ثقافة تفصح عن مكنوناتها وهواجسها، ترى هل كتب أدباء الموجات المهجّرة أو المهاجرة أدب منفى أم كتبوا في المنفى أدباً!

وذلك السؤال سيتجاوز المنفى كقسر أو اختيار، إلى حقيقة غائبة حاضرة في آن معاً، هي حقيقة الوطن المحلوم به والمشتهى، واستدعائه للأدب، ولاسيما الرواية وعلى وجه الخصوص الرواية النسوية، التي تتمظهر فيها تجليات الأمكنة الجديدة المختارة طوعاً أو كرهاً، بمعادلات الشجن الدفين والسخرية السوداء، إنه شجن الذاكرة الذي لا يسمح إلا بالحنين وعدم الاستقرار، كما ذهب المفكر الراحل إدوارد سعيد في تأويله للمنفى، كحياة معاشة خارج النظام المألوف! أو بتأويل إضافي سمح للنقاد أن يروا المثقف العربي، ولاسيما المثقف العراقي، أشبه بجلجامش جديد، يبحث عن عشبة الأمان..

إنها -إذاً- ثقافة الشتات الجديدة، التي تبعث أنكيدو آخر يصرخ بوجه المدنية التي تكاد تفقده أمانه واستقراره، ليبحث عن ذاكرته الجمعية، وعن فضاءاته الحميمة، بدءاً من دائرة المشاعر، وصولاً لدوائر أخرى تفصح عن المنظومة الفكرية للكاتبة أو الكاتب، ومنها تجليات ثقافة اللون الأحمر والأسود، أو الدم والظلام أو هجاء الثقافة الذكورية المتسلطة، كأنساق ثقافية سائدة، بمركباتها الشديدة التعقيد.

ولكن كيف للإنسان أن يغترب مخيراً كما تساءل يوماً الروائي غائب طعمة فرمان؟!

تحكي قصة عالمية عن حديقة نباتات في مدينة روسية، أن المتعهد على الحديقة أعجبه أن ينبت نخلة غريبة في البيت "المستنبت" الزجاجي الذي له سقف زجاجي لا تتعداه النباتات، لكن النخلة تنمو وتنمو حتى تنطح برأسها السقف الزجاجي وتكسره وتموت.

القصة هنا تحيلنا إلى إشكاليتين كبيرتين: إما الذوبان أو الارتفاع إلى سطح معين... أو تجاوز ذلك السطح وتحطيمه!.

هذا المجاز القصصي يفسر فعل الكتابة لدى المبدعين، إلى أين تتجه بوصلتهم.

## تسكنها المدن

تقف القاصة والروائية العراقية عالية ممدوح، في نقطة حاسمة- وهي الكاتبة المخضرمة، الأقرب إلى حساسيات وشواغل الرواية العراقية الجديدة، صحيح أنها لم تعش المنفى بشكل قسري، بل اختياري طوعي، فهي غادرت بغداد منذ ربع قرن ونيّف، خضوعاً لرغبة من سمّته بطاغيتها الصغير-ابنها- وفضلاً عن ذلك تتأرجح تجربتها الكتابية في المنفى، كما تقول: ما بين السكنى والسكينة، تتحدث طويلاً عن الجماعة التي "تحاول سحق الذات بوحشية وتستميت لأن ذلك يظل التسبيح لها ولقانونها" لتتغنى ببغداد كمدينة وحيدة، وهي بين الهنا، والهناك تعلن الكتابة كواحدة من أجمل وأصعب سبل المقاومة والاحتجاج، مسكونة بالمدن الأصلية والمتخيّلة وهي تردد: "لست منفية"، إذ أنها خرجت من العراق بإرادتها، لتضيف سبباً آخر: "إن الأزواج طغاة صغار لهذا غادرت" وتقول: كل كاتب يعيش في داخله منفى، وإن كل كاتب يحمل حسّاً عالياً بوعي المكان والزمان هو منفيّ، وهي تحاول تلمّس تخوم المدن الأهم لديها من الكتابة، لكنها بغداد التي تتلامح في أعمالها، بل يعاد اكتشافها كما تعيد هي اكتشاف ذاتها،

فتتلمس وطنها – العراق- حجراً حجراً، فتستعيد الوجوه المنسية، وتتلو أحلامها المؤجلة، تنثر تفاصيلها، لتكتشف عناصرها الدرامية، من أبسط الأشياء إلى كثافتها في وطن مبدد، مازال منذ طفولتها، لكن المنفى لديها "هو ترف كبير، وهو متوفر بشكل مبتذل".

كرة من نار

هكذا تتكئ عالية ممدوح على قلبها لترتحل وتحطّ كتاباتها في أرض بعيدة، أرادت أن تحيا، بحبها "كرة من نار" تقاذفتها مراراً، لتكتب مدوناتها منذ أوائل سبعينيات القرن الماضي، وصولاً إلى الألفية الجديدة، ثمة نقش عراقي سيثير انتباه النقاد، ليس لجدته فحسب، بل لتجاوزه الخطوط الحمراء في الكتابة حدّ الفضيحة، فالمسكوت عنه، والقيم المجتمعية السائدة، وهي تختزن في ذاكرتها خيطاً تاريخياً من الدم والدموع وحزناً منقوشاً ومحفوراً في قلبها، يواسي الضعف الإنساني الذي سيبدو أثناء الكتابة أكثر قوة وضماناً، تحدق في الداخل، تريد أن تحارب الهشاشة والهزيمة، والقدرة على عدم الاعتذار..

جغرافية ثقافية

في باريس تفرغت للكتابة، وفي بيروت توهجت ثقافياً وإنسانياً، وفي المغرب عملت بالصحافة، والصحافة جعلتها تراقب البشر، وتجعل من كل من تقابله مشروع رواية، والسينما صديقتها، تعطيها حلولاً بديعة لأعمالها الروائية، لتراهن في منفاها على مكان حصريّ غير مخترق هو بغداد.

تعلمت من نباتات حديقتها التقشف في كل شيء، الكلام والأصوات والعلاقات والمرارات، فنباتاتها كائنات حقيقية بلغت سن الرشد، تشعر أنها تجيبها بطريقة ما، بلون آخر لا علاقة له بالأخضر الداكن أو الفستقي، هو لون لا يحصل عليه الجميع، لأنه يتطلب نعمة الصداقة، وشيئاً من الورع، هكذا تشتغل عالية ممدوح على رواياتها محمولة على تلك الفلسفة البسيطة- البليغة في آن. منذ مجموعتها القصصية الأولى: افتتاحية للضحك، هوامش إلى السيدة ب، والروائية: ليلى والذئب، حبات النفتالين، الولع، الغلامة، التشهي، المحبوبات، وكتابها النقدي: مصاحبات... قراءة في الهامش الإبداعي.

سيمفونية الألوان والظلال

على الرغم من أن عالية ممدوح قد اختارت وحدتها أو كما تسمّيها وحدة الاستغناء، فهي ستبدو دائمة الحديث عن موضوع يتجدد باستمرار هو ملامح المرأة العاشقة، لذلك اختارت في "الولع" أن ترسم صورة عن قرب لحبها المستحيل، ففي باريس التي تحاول محوها والعيش على هامشها "لا يرى المتزوجون وجوه بعضهم... إنهم يتجاورون ليشمّوا روائحهم البشرية، أما هي فقد اختارت الوحدة لا لتصل إلى جحيمها أو فردوسها الخاص، بل لتتماهى مع شرطها الإنساني الشديد بالمعنى النفسي والعاطفي والمعرفي، لذلك يتجدد موضوعها ، مرة بالولع، وأخرى بالمحبوبات، لكأن الشوق والتوق، ما انفكا يشكلان إحدى محفزات إبداعها وجرأتها الحاسمة، بدءاً من عناوينها المثيرة للجدل، إلى خطابها الروائي المغاير في بوحه العاري وطريقته في صوغ معرفة مختلفة عما نألفه، دون أن تسقط أدواتها في شرك المجانية والمباشرة، ما يعني تالياً القول بتقنيات حاضرة على مساحة مدوناتها السردية، أي كفاءة المتخيل، وضبط المعادل الفني للمعيش أو المحلوم به، أو الذي يغذي نزعتها للسخرية والهجاء، دون أن تفرّط بالحسي على حساب الفني أو العكس تماماً، وبمعنى آخر فإن سؤال الجنس الذي تجهر به رواياتها اللاحقة بالأغلب الأعم، من شأنه أن يحيلنا إلى ذرا فكرية وسياسية ونفسية واجتماعية، يصبح معها- سؤال الجنس- سؤالاً مضاداً لمكونات وبنى وسلوكيات أضحت بقعاً سوداء، شديدة العتمة، يخشى كثيرون من التحديق فيها، فلا أحد يقرّ بالهزيمة أو الخسارة كما تذهب الكاتبة عالية ممدوح، وهي تطأ أرضاً مشتعلة، وتثير أسئلة صادمة، بنماذجها النسوية والذكورية المتشظية وسط مناخات مختلفة، اقتصادية وأخلاقية، والمثقلة بأصداء جراح نازفة من جسد العراق يتنازعها الحنين والأسى، لتبدو حيواتها أقرب لمرآة صقيلة لمصير كل ما لا يأتلف مع عصر "العولمة" لترسم رواياتها ما بين زمن التاريخ وزمن الوعي مأساة مكتملة، تحاكي مآسي بشر حقيقيين، لتلتقط المأساوي وتروي نطق الجسد وارتعاشة الروح، وعلى الأرجح أن الشخصيات ستأخذ شكل "القناع"، قناع شرطها الاجتماعي كما هزائمها الذاتية.. ونموذجها الأنثوي هدى في "حبات النفتالين"، الطفلة والمراهقة التي تواجه حياتها بقلب شجاع ووعي في فهمها لأمها وأبيها وأخيها وجدتها، ومقاربتها للحب والزواج، مع ما تطرحه الرواية من اختلاف القيم الذكورية والأنثوية، وهو ما لفت انتباه النقاد إليه، فليس الرجل هو السيد الذي لا يقهر، ولا المرأة هي الضحية دائماً، لكنهما بالأحرى كلاهما خاضعين للتقاليد، حيث تشير الرواية إلى قصص نساء من فئات أعمار مختلفة، وسط تناقضات تعصف بالبلاد خلال الأربعينيات والخمسينيات، ويقودنا مضمر الرواية إلى أن الاحتلال الأجنبي ليس هو العدو الوحيد، ثمة أعداء آخرون: الأعراف والعلاقات الاجتماعية البالية، والآليات الفكرية والسياسية التي تتحكم بمصائر وأقدار الناس، وإذا كانت الرواية تستبطن الدعوى للتغيير، فهي تجهر أيضاً بنماذجها النسوية الأكثر قدرة على اتخاذ القرارات، ولاسيما الجدة بمواقفها ضد الظلم الواقع على النساء، وتجليات تحدي السلطة الذكورية المغروسة في التقاليد والأعراف والممارسات الاجتماعية، فرياح التغيير تنذر بالتحولات والرهانات في بنية مجتمع سوف يعبر من آلامه إلى ما يحفظ وقائعه الأخرى في الذاكرة، إرهاصات لتغيير زوايا النظر بقضايا

ليست نسوية خالصة، وإن كان الهم النسوي حاضراً بقوة "لا تنحن عادل ولا تستدر، ابق في مكانك.. الدنيا قصيرة والساعة هنا صارت موحشة، قهقه عادل من أبيك اللائب، وأمك الناقصة وجدتك الحرة وعمتك الإبليسة وأختك التي لم تحبك وحدك".
"حبات النفتالين" هي رؤية خاصة في تاريخ وطني، وعلى الرغم من أنها أهم ما كتبت عالية ممدوح كما تذهب الناقدة د. بثينة شعبان، وأنها كما تقول الناقدة د. لطيفة الزيات: "غنوة حلوة لأهل بغداد البسطاء، وغنوة للأمكنة التي احتفظت بها الذاكرة". إلا أنها لم تحظ باهتمام نقدي واسع الطيف يكشف مستويات شعريتها، بل مستويات المعنى الذي يشي به المكان العراقي الذي سيصبح بطلاً في عمل آخر هو "التشهي" ومنه تتعاقب أحداث الرواية وفصولها، فالعلاقة بين الجنس والسياسة ستنفتح على موضوعات محايثة.
تقول عالية ممدوح: "موضوع الجنس كجبروت سلطوي، قد يؤسس للقتل بمعانيه المجازية والإجرائية والفعلية، أثارني وما زال" فقد حاولت ممدوح الاشتغال على شخصيات خربها الفساد والتدليس ما بين قوتين مهلكتين الجنس والسياسة، من خلال نموذجين مضادين، إذ أن سرد المريض العراقي الضعيف والفاشل سيتوازى مع مستوى استعاري للفشل السياسي، وتبرع الكاتبة في إسقاطات العجز ودلالاته "كيف تلاحق بلداً بالكلمات والسرد والشخصيات، وهو يحتضر ما بين قسوة الاحتلال وبين الخراب والجرائم".

السخرية السوداء

يلعب الموضوع الجنسي دوراً في تعرية المجتمع والبشر وما يعتري النفوس، لكن اللغة تحاول أن تكون حيادية مضادة مجبولة بالسخرية السوداء، إن أحد الأسئلة التي أثارتها الرواية يرى أن الجنس لا يمثل الهدف الحقيقي للرواية، بقدر ما يمثل المجال الحيوي الذي اختارته الكاتبة لتسجل اللحظات التاريخية لتعرية مجتمع شرقي، يضج بالجنس ويأبى الاعتراف بذلك، في وقت أصبح فيه كل شيء مكشوفاً!
إن زعزعة التابوات كما يرى الناقد محمد برادة "ذهب بنا إلى تلك الأسئلة المستعصية التي لا تنفك تتناسل كلما حاولت الشخصيات الروائية التقاط أسباب العلة الخفية الكامنة وراء مأساة الشخوص التائهين في منفاهم الأوروبي، وراء تراجيديا العراق الذي يتكبد الحروب والأزمات". في نص بالغ الاستيهامات والمخاوف والعلل الخفية التي قلبت مجرى حياة سرمد برهان الدين المريض العراقي بالانفتاح الدلالي للمرض، على مساحات خصبة من التأويل والقراءة.

البوح العاري..

ولعل الأسئلة التي استنبطها النقد حول الجنس كمضمون، ستقف عند روايتها الصادمة "الغلامّة" بنموذجها الرئيسي "صبيحة" التي عثر على جثتها في دجلة، وهي اشتركت في مسابقة أعلنتها صحيفة "الغد" فثمة رحلة في أعماق امرأة مثقفة حالمة تسرد تفاصيل عالمها المتشظي بكل حرية من يعلم، بأن ما يبوح به سيقرأ بعد موته، تفاصيل تذهب إلى إكراهات بيئة صارمة بنموذجها المثقف، المتطلعة لحياة أفضل، رغم مصيرها التراجيدي والقاسي. تعترف عالية ممدوح بأن روايتها "الغلامة" هي أقسى ما يمكن أن تكتبه في حياتها وتقول: "عندما انتهيت من هذه الرواية فوجئت بقسوتها"!
ويتساءل النقاد مرة أخرى: "هل ثمة ذعر أصاب الكاتبة بحجم وعمق البوح الذي أفضت به صبيحة، المرأة العراقية المغتصبة من شهوات وتجارب حسية وجسدية... مما جعلها تقتل ليكون وقع البوح أقل وطأة على القارئ، أم أن الأمر جاء من إتقان الكاتبة... وبشكل مبالغ فيه مما يوقعها في مطّب التدخل في مسار حياة شخوص النص"؟!
لكن التساؤل الأقسى هو: هل البوح العاري ما جعل الكتاب والنقاد يتحاشون تناول نصوص عالية ممدوح نقداً وتحليلاً، بالرغم من أصدائها العربية منذ مجموعاتها الأولى؟!

مديح الصداقة أو الزمن الجميل

في "المحبوبات" رواية عالية ممدوح الأجمل، تستأنف الكاتبة البحث عن الشرط الوجودي لثلة من المحبوبات كبيرتهن "سهيلة أحمد" المغتربة العراقية والمثقفة، الذواقة والممثلة المسرحية والراقصة.
ثمة نص كثيف مرهف محسوب بإيقاع الروح، تأتلف في نسيجه الدارمي المحكم شتات الوجوه والعذابات والخسارات، وفسيفساء الأشياء والبشر والمدن المحلوم بها، وتداعي الحدود بين الفلسفة والأدب، إنه خلاصة حكايات تستدعي وطناً ضائعاً، أو فردوساً مفقوداً بكيمياء الحنين ومقامات البوح في المنفى، لتحضر الذاكرة بتداعياتها وانعطافاتها القصوى، كما التاريخ بكل لحظاته القلقة والمشوبة بفرح خفي ومعلن معاً، تحاول بطلة رواية عالية لمّ شمل جميع الأصدقاء، ولاسيما العراقيين، نخبة من المنفيين والمنفيات، مع نادر آدم ابنها.
تسقط "سهيلة" في أحد شوارع باريس إثر إصابتها بجلطة دماغية، وتنقل إلى المشفى، بين الحياة والموت والغيبوبة تتداخل الأصوات لتتحدث بلغتها وهمومها، لتسرد مأساة سهيلة وبقية محبوباتها اللاتي يعانين تسلطاً ذكورياً عنيفاً، مثاله ما تعرضّت له كبيرة المحبوبات سهيلة من سلطة زوج قاسٍ "أنا لم يخرجني الضرب المبرّح عن طوعي" تذهب للرقص لكي تخفف من الضجر،

تتحرر من داخل جسدها حركة راقصة، لا تعرف أين كانت تختبئ، فالرقص هو الذي يحيّر الموت، الرقص كموقف وإستراتيجية للحياة، تقول إحدى محبوباتها د. وجد: "لقد آمنت بأن الرقص يزيد مناعتها تجاه القهر الذي كانت تعانيه، ويقوّي الاختيار ما بين الحياة والفناء ولذلك أدمنته".

كأنما تستحضر طقوس زوربا اليوناني لخلق حالة من التوازن إزاء خطابات العنف والقهر، في نصّها المليء بالإشارات وأخبار المحبوبات، وصدى الحملات العسكرية الأميركية ضد العراق ومظاهر الحصار، صداقات تشكل ثقافات مختلفة "كارولين السويدية، ووجد المصرية ونرجس اللبنانية وبلانش العراقية وسواهن ما يعني انفتاح دلالة المحبوبات على فضاءات إنسانية ثرية. "الصداقة لا تنزل من السماء، إنها مغروسة بالأرض وعلينا رفعها ورعايتها لكي تصمد وتزهر".

تبدو سهيلة بتذوقها للموسيقا والأطعمة وخبرتها في الطعام كأفروديت، ما يضفي على الرواية نكهة ثقافية، تواسي القلق لدى نساء وحيدات، وتسمّي باريس وقت النقاهة من اليرقان العراقي فتبرع في محوها، لتقرّب بغداد عشقها الأثير، وتكتب وجودها على هذه الأرض ببلاغة أعذب الروايات، مسكونة بالحب والمحبة: "أنا خاوية معطوبة، أحبّ أن أحّب وأكون محبوبة، أحب جميع الكلمات التي انتظرتني ولم أقلها لأحد، أحبّ الكلام المجهول الذي لم أتأكد من وجوده، بالزائد الذي لم يفض وبالناقص الذي فاض". كأنها تسعى لاكتشاف آدم آخر، تقارب بمدوناتها "المحبوبات" ما يجعلها تكتشف مبدأ الرغبة واللذة في مواجهة فكرة الشقاء السعيد مثقفة لا منتمية لا تكف عن الملاحظة وهي تنوس ما بين الحياة والموت واستدعاء الحرية، لتطلق أخيراً نظرتها الجديدة في الكتابة المؤنثة، بالمعنيين الفكري والفلسفي في مواجهة المذكر المسيطر في بنية التفكير الأبوي، تفكك البنية المستقرة لدور حواء المتمرد في مقابل آدم الانصياعي، بأرواحها العديدة، كي لا تضلّ الطريق إلى بغداد، التي تعيد بناءها وتخاف عليها من الزوال ببيوتها وصور دجلة وحدائق بابل المعلقة وتمثال أبي نواس والرصافي والزهاوي، وبدر شاكر السياب، بل بذاكرتها وتاريخها وبشرها.

عالية ممدوح.. سطور وعناوين

ولدت عالية ممدوح في بغداد عام 1949.

أصدرت جريدة الراصد في بغداد 1975-1980.

صدر لها مجموعتان قصصيتان وخمس روايات.

فازت روايتها المحبوبات بجائزة الأديب المصري العالمي نجيب محفوظ.

بثت إثر فوزها بالجائزة رسالة قصيرة مسجلة "بالفيديو" للروائي نجيب محفوظ قال فيها: إن العراق كان مهداً لميلاد الشعر الحديث.

اعتبر قرار لجنة التحكيم أن رواية "المحبوبات" هي أنشودة للصداقة من أجل الحياة، إنها رواية المنفى التي تصوغ لغة المنفى لتقاوم بها شتى أنواع الاستلاب.. إنها رؤية جميلة في عالم يغيّب شاعرية البقاء.

وقالت عالية ممدوح في كلمتها: إن هذه الجائزة النفيسة هي لجيل عراقي كان عدد شهدائه ومشرديه وجائعيه أكثر من أولئك الذين يجلسون وراء مكاتب أنيقة... جيل كان انكساره أعظم من الذين تسببوا في هذا الانكسار.

وعلقت: إن هذه الجائزة تمنح لجنس الكتابة والإبداع العراقي وليس لجنس المؤلفة.

وأشارت إلى أن العراقي سيدون بكل الطرق الممكنة واللامعقولة ثقافة الفناء والاختفاء وأن كتابتها لا تحمل رسالة معينة وأن ما يأخذها هو فعل الكتابة نفسه، ومشروعها موجه للإنسان أولاً وأخيراً. ويذكر أنه فاز بالجائزة الأدباء العرب يوسف إدريس ولطيفة الزيات وادوارد الخراط وهدى بركات وسمية رمضان وبنسالم حميش وأحلام مستغانمي وحسن حميد.

يرى النقاد أن شعرية النص في سرد عالية ممدوح يكمن في امتلاكها لحظة حرية في الكتابة متداخلة مع صدق تعبيرها عن تجارب حية مدمّرة، أبعد ما تكون عن ترف الثقافة.

http://www.jouhina.com/article.php?id=1800